الشاعر والناقد الليبي صلاح عجينة:

مسألة الاجيال في الادب الليبي لا تعني الاختلاف والمغايرة!

طرابلس ـ «القدس العربي»:

تجرأ وتجاوز واستطاع خلق مناخ معاكس لحالة الاحباط المزمنة التي تمكنت واستشرت في نفوس الكثير من المثقفين الليبيين، فكان هو، وكان نصه وخطابه دعما لنهضة ثقافية تبنى في مقابل أصوات سلطوية أيديولوجية متخلفة تهدم، سعى مع آخرين من جيله لخلخلة الثوابت وهز أركان المؤسسة الشعرية التقليدية، يقترح كتابة نصه ويأمل وجود اقتراح نقدي نظير اله، هذا هو الشاعر صلاح عجينة وهو يطرح وجهة نظره بجرأة من خلال هذا الحوار.

■ يتضح من خلال مجموعتك الشعرية (قريبا من ناصية البئر والتحول) أنك تمارس التجريب على اللغة في مغامرة مستمرة نحو هدم وبناء، ألم تصل الى لغة ترضيك وبالتالي تمثلك؟

■ كنت ـ ولا زلت ـ أحلم بلغة سليلة عتق ما وآنية معا، لغة لها امكانية الاحتمالات جميعا، لغة على رأس أجندتها احتواء فكريَ الشعري، أقصد لها هذا الطموح، وأثناء حلمي لا أكف عن نيل مساحات ممكنة من لغتي الحلم، لذا ليس بوسعي الا طرق باب التجريب الى النهاية، فالتجريب في أصله ثورة الفن الذاتية التي تجدد دمه من الداخل وبنسق قانون طبيعي غامض. في كراسي الشعري (قريبا من ناصية البئر والتحول) رحلة صوب هذا الطموح أو الأصل.

انني أشعر وأنا أقرأ نص كراسي المذكور وبعدما مرت فترة الاحتفاء بصدوره أي بعدما اتخذ سبيله نحو التعتق رويدا رويدا شأن أي كائن يبعث الى هذا الوجود ـ قلت ـ أشعر بلذة اكتشاف مكامن كانت تسكن مخيالي الشعري الذي يحوي بالضرورة نظيرَتي كانسان متفاعل مع موجودات المحيط التي تحاصر وجوده. وأحب هنا اضافة أن قراءاتي للنص الذي أيمم شطره أمارس التجريب أيضا في قراءته كفعل قراءة قادر على استيعاب اشكالية الكتابة باستمرار. ان التجريب في فعل القراءة مهمازي الأصيل في مسألة الفن.

■ ألا تكون متعصبا لرأيك أحيانا ولا تلتفت لما يقوله النقاد؟

■ ماذا يقول النقاد؟ أود أن أسأل، على نحو ما يمكنني القول ـ مثلا ـ يحلمون بكتابة نص نقدي للنص الشعري وبالتالي ـ في رأيي الخاص ـ ان الحلم أستاذ الطرفين ونقطة لقائهما وأول دروسه تقبل الآخر الى النهاية شريطة أن يكون الفن هو الأصل. وبالنسبة للتعصب لرأي ما أين كان هو أسلوب يقع فيه الكثيرون وهو أسلوب قديم قد تجاوزته ضرورات حوار المعرفة المعاصرة. وعلي في هذا الصدد أن أطرح السؤال الآتي، لماذا اختفت النظريات الكبرى في المعرفة الانسانية المعاصرة؟ أعتقد ـ وهذا الاعتقاد ليس بالضرورة اجابة على السؤال السابق بقدر ما هو تهميش يخصه ـ أن انحسارا كبيرا قد طال التعصب الى فكر بعينه وأن اشتراط الحوار كأسلوب معرفي كان كفيلا بتبديد الكثير من مثل هذه الارتباطات القديمة وعلى رأسها بالطبع التعصب لفكر معين بعقل التعصب. أنا تحديدا أريد أن أقول إن النص الشعري اقتراح والنص النقدي اقتراح نظير.

من هذا المنطلق أنا شخصيا أمارس فعل الكتابة ومنه أيضا أمارس فعل القراءة ـ التلقي.

■ من هو الشاعر الذي تشعر بأنه الأقرب لك من غيره؟

■ كل من يكتب قصيدا له سمة الولوج في أسئلتي التي هي ذاكرتي الآنية والمتخيلة ـ اللاحقة، من يأتي لعقلي الشعري بالأثر، بمفهومات جديدة للأشياء، بعلائق جديدة قد تكون قديمة لكنها متخفية أو غامضة، بمداخلة حيوية لفن الشعر. فأحيانا يهيأ لي أنه ليس ثمة شاعر يحقق هذا الطموح الى النهاية وحده، ان كل شاعر يولد ليكتب على هيكل الشعر حرفا من كلمة عشق لم نقرأها بعد وذلك أن ثمة شعراء سيأتون الى الأرض ليكتبوا باقي الحروف.

■ كيف تنظر الى مسألة تصنيف الشعراء في ليبيا الى أجيال؟

■ لست من المتورطين كثيرا في لعن نظرية التجييل ولست في ذات الوقت من المنهمين بها، فالجيل الأدبي في رأيي هو الحنين الخرافي لظروف وأبجديات وأزمنة ملتبسة مر بها شاعر ما ولها الفاعلية والانتاج والخلق في كيانه الثقافي. فالشاعر الذي يحلم للعالم وبه يكتب يقدس القوى التي أكدته والتي لفظته ويلعنها في آن. بهذا التضاد يمكنني القول بين تنصيص صغير ان الجيل الأدبي هو حرص البداية على النهوض وحرص النهاية للتأريخ لهذا النهوض الذي في معناه القصيد الحلم والفكر الأمل الذي نتمنى على أنفسنا كتابتهما كما نتمنى ممارسة ما يرتبط بهما من طقوس منطبعة في ذاكرتنا ونحن أطفال، في ليبيا يمكن تلمس حادثة الجيل ظاهرتيا لكنك لا تستطيع الذهاب أكثر من هذا. الجيل الأدبي في ليبيا لا يعني معايير نصية مميزة لجيل عن آخر بقدر ما هو التاريخ للحظة ولادة الأدباء الليبيين.

■ ماذا تقول عن جيلك من شعراء التسعينيات في ليبيا؟

■ أحبهم بالمعنى الأثيري، وأقرأهم عن قرب، وليس بامكاني أن أضيف أكثر في اللحظة الراهنة.

■ هل صحيح أنك كنت ترغب في قيادة مجموعة لتكوين جيل يسمى (التسعينيون) يوازي في قوته وخطابه الأجيال السابقة ويتناقض في طرحه وأسلوب تناوله لقضايا الثقافة والعصر مع ما جاءت به تلك الأجيال؟

■ أكون مخادعا لو تنصلت من خطوات ومواقف تغذي دورا شبيها بالدور الذي نعتني به ولكن لم يكن أبدا في أحلامي طموح لعب مثل هذا الدور وانما قد وقعت فيه لضرورات تخص الكتابة والثقافة في عمومها، وقد كلفني القيام بأدوار كهذه دفع أثمان مستحقة. أن تقوم بالذود عن ذائقة ما وملامح فنية معينة يعني أنك لا بد وأن تكون مستعدا للمواجهة الحقة مع أنظمة معرفية مغايرة قد تتجسد في جيل قديم أو في جيل جديد ينطوي على كلس بائد، يعني أنك قد تواجه ذائقة جمعية متردية تقرأ النص من الخارج ولا تستطع استبطانه، انني أقولها وبصراحة وهذا الكلام يخص كراسي الشعري (قريبا من ناصية البئر والتحول) مثلا ـ فبالرغم من بعض الكتابات الاحتفائية والمقاربات النقدية التي خصته الا انها ظلت بعيدا عن الذائقة والمعرفة التي صاغته، انني أحيانا أعيد النظر في مفهوم بأسره وأحيانا أقتص من جدران سميكة تقف حيال حلمي من هنا ـ ومن النص ذاته ينبع التحدي الحقيقي وبهذا الكيان تتجسد ذات المثقف الذي يملك خاصية الحركة الواعية في مجتمعه لأنه في حالة قراءة دائمة للأشياء والمفاهيم، انه يتحرك معها وبها منتجا فكرا شعريا يوازيها، فان كنت قائدا لجيل ثقافي أو أقف في مقدمته كما قرأتني أنت وغيرك من المهتمين ذلك ـ لربما ـ لكوني الأكثر حضورا سواء من عدد كتبي وجدة ما أطرحه خلالها أو من أعمالي الأخرى التي ظلت رافدا لتجربتي الثقافية أو من حضوري في رابطة الأدباء والكتاب من خلال رئاستي لها في مدينة الزاوية ثالث أو رابع المدن الليبية ولا سيما أنني من جيل التسعين فذلك أمر متروك لك وللآخرين، أما أنا فمنشغل حتى الاعياء في القراءة والكتابة وبهموم الثقافة والعمل الأهلي أولا وثانيا والنقابي الثقافي أخيرا ولي في ذلك رأي ورؤية وأحمد الله على أنني أنبذ بالفطرة الظهور المجاني أو الذي يثمن كما أنبذ التعامل مع ظاهر الأشياء ربما لأن زهدي ظل منهلي الأول بما مدني به من قناعة واكتفاء وعزيمة وتأمل مستمر رغم كل الظروف المرعبة التي يمر بها مثقف عصامي.

أريد أن أقول لكم أتمنى أن يتأسس في ليبيا جيل أو دفعة أو زمرة أو أية كلمة تدل على أكثر من اثنين يحمل مبدأ المبادرة ولأجل الثقافة في مفهومها الانساني الشامل في ليبيا وأن يكون معافى من الأتراح والعقد النفسية والصراع من أجل الريادة ـ الهيمنة في رأيي ـ فليس ثمة من ريادة خارج النص والأسماء التي صنعتها مؤسسات الثقافة هي أسماء ادارة وليست حالات ثقافية، هم لقطاء الثقافة اذ لا يخصهم النص في معناه الأبدي الذي هو بالضرورة ابداعي.

■ هل تفكر في الطرف الآخر، المتلقي؟

■ المتلقي مشروع مفترض أضع أساسات الحوار معه ولا استعجله حتى أواصل التنفس بمنأى عن الضجيج!!، فأحيانا يبدو لي أن المتلقي عليه وحده ملاحقتي، أن يهتدي الي وحين يلتقيني سيجدني قد أهديته سلامي منذ البدء منذ كنت طفلا وأنا أحلم بكتابة شيء ما.

■ في مقالاتك التي ضمنتها كتابك (مطالعات وهوامش) ركزت على الجانب الاجتماعي في تناولك النقدي لبعض التجارب الى أي مدى يسهم ذلك في انجاح فعل الكتابة كفعل نقدي؟

■ ان مقالاتي على نحو ما تحمل اقتراحي الحي الذي به استعيد ذاكرة الثقافة اليومية ومراجعاتي لما يكتب ويصدر وهي تفقداتي أيضا وأنا من أولئك الذين يقترحون الانطلاق لكتابة نص مبعثه تشابك الثقافي بالاجتماعي، وأنا بحاجة الى القول بأن ما أكتبه هو تهميش على متن ثقافي هو تجربتي مع سؤال الشعر، فحتى وإن طغت كتابتي في النقد والرصد والاحتفاء فهي في نهاية المطاف لا تعدو أكثر من اجازات تتخلل عملي في حقل الشعر.

لكن، دعني أضيف أن أهمية الاجتماعي تكمن عندما يتخلل الثقافي في تبديد صرامة هذا الثقافي وجدته وعلى ما يفعله هذا الاجتماعي كاغناء، كحالة جذب للمتلقي الذي يلوذ وجدانه بغيبيات النص، فالمتلقي يحتاج ما يحقق له هذه اللذة وفي مقابل ذلك يذخر استعدادا للتعاطي مع النص في جدته التي هي المتن، أجدني أقول إن علاقة الثقافي بالاجتماعي عندما تتكون في آتون آلية منتجة وخلاقة تكون الأقدر لصياغة كتابة حية وفاعلة، علاقة الاجتماعي بالثقافي ليست لوحة اشهارية عند مفترق طرق بالنسبة للطريق مثلا، بل هي الأرصفة والانارة معا للطريق، فهل يعقل مثلا أن يكون طريق ما بدون هذين الشرطين الحاسمين لمعنى الطريق الذي يؤدي مهمة الهداية.

■ كونك شاعرا تمارس العمل الثقافي بكافة أشكاله ما هي علاقتك بالسلطة؟ وكيف ترى علاقة المثقف بالسلطة؟

■ لكل مفهوم أو كلمة رحلة عبر تاريخه أو تاريخها ينتقل عبر نقاط مفصلية بين دلالات مختلفة ـ فالسلطة مثلا وعلاقتها بالمثقف لم تعد تعني الانصراف البديهي الى ثنائية المثقف الذي يقبض على المعرفة وحده أو الذي وقع في المعرفة ونقيضه الحاكم بأمر الله أو بأمر الشيطان، الذي بدوره يمتلك جيشا من الجلادين، أما الآن فالمثقف قد يكون الحاكم نفسه أو آلية انتاج الحكم هذا اذا ما اعتمدنا على وصم من يمتلك معرفة ما بالمثقف. والسلطة في المقابل قد تكون ثقافة وقد يكون مصدرها مثقف فرد.

بالنسبة لي أعتبر الأكاديميين والباحثين الكسالى منهم والناشطين على حد السواء وغيرهم من القطاعات المشتغلة في حقول البحث العلمي ليس من الضروري أن يخصهم مصطلح المثقف الذي في معناه الأصيل الذي يمتلك نظرية رأي أو حراك مصدره الهم الانساني وهو غير الناشط الحقوقي أو قائد المظاهرة، فالمعرفة المعلوماتية نوع من الاشتغال المهني.

أما اذا تطرقنا لعلاقة المثقف بالسلطة في مفهومها التقليدي والسائد وانطلاقا من أرضية عربية فأود أن أسجل هذه الأسئلة، هل ثمة من حرية رأي؟ وهل للنص – الثقافي ـ من شفاعة؟ وهل ثمة من وسائط تعيق محق المثقف، أقصد تحميه؟، ثم كم هو عدد السجون والمخبرين والميزانيات المرصودة في عالمنا العربي القائم بوظيفة تدجين الفكر الأحدي، والسؤال الأعمق من المخول بممارسة حق الوصاية الفكرية باسم المفاهيم والعقائد، انها أرتال من الأسئلة التي تترصد ذاكرة المثقف العربي أينما حل وتضعه دائما في وضع المقارنة بينه وبين الآخر الذي ينتج خارج فلك هذا الرعب الكاسح، علاقة معقدة ومتشابكة لها من التاريخ الحدث المتناقض ولها من الآني الأسئلة المُرة.

صلاح عجينة (القدس العربي)

التقاه: محمد القذافي مسعود

هيئة الكتاب تصادر ديوانا للشاعر المصري محمد آدم بعد ايام من صدوره وسحبه من جميع المنافذ

القاهرة ـ «القدس العربي» ـ من محمود قرني:

بد ايام قليلة من اصداره، قامت الهيئة المصرية العامة للكتاب بمصادرة ديوان الشاعر محمد آدم (هكذا عن حقيقة الكائن)، وقامت ادارة التوزيع بسحب نسخ الديوان من جميع الفروع، دون تعليمات رسمية مكتوبة، وكانت الشائعات التي اثيرت حول الاسباب تشير الى ان الكتاب تم سحبه لاسباب لها علاقة بنظام ادارة التوزيع بالهيئة، بيد ان الاسباب الحقيقية الكامنة خلف قرار المصادرة غير المكتوب تشير الى ان واحدا من اعضاء مجلس الشعب توجه بالكتاب الى الدكتور ناصر الانصاري رئيس مجلس ادارة الهيئة وأطلعه على ما يحويه من خروجات دينية واخلاقية وهدد باثارة حملة صحافية وبرلمانية واسعة ضد الهيئة اذا ما لم تقم بسحب الكتاب من منافذ التوزيع ومصادرته نهائيا.

ويبدو ان جمع الكتاب من المنافذ جاء تلبية لهذا التهديد، في ظروف غير مواتية على المستوي السياسي والاجتماعي لا سيما ازاء القلاقل اليومية والاضطرابات التي تثيرها جماعات الضغط السياسي التي تتصاعد نبرتها بشكل يومي.

وقرر رفض أي من مسؤولي منافذ التوزيع منح المؤلف اية افادة رسمية حول تعليمات مدير عام التوزيع بالهيئة بسحب الكتاب، رغم ان الكتاب لم يتم عرضه في هذه المنافذ اكثر من اسبوعين.

ويعتبر هذا هو الديوان الثاني الذي يتم مصادرته عن طريق هيئة الكتاب للشاعر محمد آدم وهو ديوان (انا بهاء الجسر واكتمالات الدائرة) الذي صدر عن الهيئة في بداية عقد التسعينيات.

ويأتي سلوك هيئة الكتاب ـ على غرابته مؤيدا للموقف الحكومي الذي يسعى لوأد اية بلبلة يمكنها اثارة المشاعر الدينية لدى عامة الناس ولا سيما بعد صعود تيار الاخوان المسلمين في الانتخابات البرلمانية الاخيرة وكذلك الصفقة التي تعكف عليها الحكومة الان لاجراء مصالحة واسعة مع جماعة الجهاد والجماعة الاسلامية المعتقل معظم اعضائها منذ بداية التسعينيات.

ومصادرة ديوان محمد آدم ليست الحالة الوحيدة التي تؤشر على الانحدار الواسع للقيمة الابداعية في نظر الدولة والمجتمع، فقد شهدت مصر في السنوات العشر الماضية حالات مثيلة ادت تداعيات بعضها الى ارتكاب جرائم شروع في قتل ضد الرموز، فبعد اغتيال فرج فودة وقعت محاولة اغتيال الصحافي والكاتب مكرم محمد احمد، ثم محاولة اغتيال روائي نوبل نجيب محفوظ وهرب المفكر نصر حامد ابو زيد من حكم قضائي بردته وتفريقه عن زوجته.

على جانب آخر شهدنا قيام الدولة ممثلة في العديد من المؤسسات الكبرى بمصادرة العديد من الكتب، ولا يمر عام واحد الا ونجد مجمع البحوث الاسلامية قد قام بمصادرة العديد من الكتب، فالقانون الصادر بانشائه يمنح احد عشر عضوا من اعضائه سلطة الضبطية القضائية وهو ما يعني ان المجمع قادر على مصادرة أي كتاب دون صدور احكام قضائية، بل للمجمع الحق اصطحاب وطلب دوريات مدججة بالسلاح للضبط والقبض على مصدري هذه الكتب، كذلك تفعل المؤسسات الحكومية التابعة لوزارة الثقافة، وقد فعلت ذلك الهيئة العامة لقصور الثقافة اكثر من مرة عندما صادرت رواية (وليمة لأعشاب البحر) ثم الروايات الثلاثة، وديوان أبي نواس، ثم توسيع دائرة الرقابة على الكتب قبل نشرها عقب هذه الاحداث التي اطاحت بعدد من رموز العمل الثقافي. ولا يمر معرض واحد للكتاب الا وتمت مصادرة عدد من الكتب الواردة بصحبة الناشرين العرب والاجانب، كل ذلك يتم تحت دعاوى ازدراء الأديان والحض على اخلاق لا تتواءم واخلاق المجتمع.

وقد شهد الشعر السبعيني في عمومه اكثر حالات المصادرة بالمقارنة بالاجيال السابقة والاجيال اللاحقة، وما من شك في ان الظرفين التاريخي والسياسي عاملان محددان ومؤثران في هذه الوضعية، بيد اننا لابد ان نعير الطبيعة الخاصة للشعر السبعيني بعض الانتباه.

فقد نحت هذه الشعرية باتجاه أخر يناقض الخطاب العام الذي صاحب مشروع القصيدة الستينية، وبدأ هذا المشروع تنقيبه خلف الذات بتوسيع وتعميق دور اللغة المركبة، وفكرة انقسام الذات وكما هي في العالم. وكما هي العالم فيها، لذلك كانت فكرة تفجير اللغة على خلفية الوعي الغائب في التراث الصوفي هي المحور الرئيسي في معظم تعليمات هذه الشعرية، وربما كان ذلك سببا مباشرا في استرسالها في الهذيان والفتوحات السرمدية اللا نهائية. وعلى جانب آخر امتحنت هذه الشعرية خطابها الفكري في محاولات دؤوب لزحزحة فكرة المقدس في التراث العربي، وظلت هذه المقدسات والخروج على اقانيمها وكان محمد ادم احد هؤلاء الشعراء لذلك فقد تعرض مع بعض اقرانه لعسف مستمر، وقد كادت قصيدة للشاعر عبدالمنعم رمضان ان تغلق مجلة ابداع في منتصف التسعينيات بعد ان نوقشت نقاشا موسعا في مجلس الشعب وكان يرأس تحرير المجلة الشاعر احمد عبدالمعطي حجازي.

وبغض النظر عن الاختلاف او الاتفاق على القيم التي تكرس لها هذه الكتابة، فان مضامين الوعي الاجتماعي والسياسي بها ظلت قاصرة وبعيدة عن حتمية تطوير الذائقة العامة في اتجاه دفعها لاستيعاب جماليات غير مسبوقة في الشعرية العربية، جماليات كرست لما قبلها وساعدت ـ بشكل او بآخر ـ في التمهيد لما بعدها، هذا بالاضافة الى ان الانهيارات المجتمعية التي خلقت اكثر الكيانات الراديكالية في الثلاثين عاما الاخيرة والمتمثلة في جماعات العنف الديني اثرت بشكل شديد السلبية على ضيق المناخ العام بكل حركات التجديد، لأن الدولة نفسها تقوم على خلفية من الذريعة الدينية، وهو ما جعلها تدخل في سباق على الكسب الاجتماعي مع هذه الجماعات، فاضطرت الى تبني اسلام اكثر محافظة على كل المستويات خشية المزايدة عليها، وذلك بدلا من ان تنهض في سبيل استعادة الوجه الحضاري المصري، وتجاهلت الدولة تاريخ النضالات التنويرية منذ دولة محمد علي، وكذلك نضالات الحركات السياسية، اليسارية تحديدا، وباتت المواقع المسؤولة في الدولة ممنوحة للأكثر كفاءة، وبات ـ كذلك ـ الولاء هو اول الفروض واجبة الأداء، ثم ترهلت البيروقراطية المصرية في مجملها، فتحولت الى فساد واسع تحميه الدولة نفسها لأنه بات جزءا من عجلتها، وانتهت النخب الى التفتت والحياة السياسية الى الموت والضمور، وتصاعدت البطالة بأشكال غير مسبوقة، وباتت الموهبة والتفوق والنبوغ، قيما زهيدة الثمن في ظل الدولة المرتشية والراشية، المفسدة والفاسدة، وتولي امر الثقافة ضباط الامن والعساكر من غير المؤهلين حتى للنهوض بأعباء العسكرة، فكرسوا أسوأ الوجوه للثقافة المصرية، وأصبح الرهان على وجود حركة ثقافية أشبه بالرهان على فرس رهان مات قبل ان يولد.

فكيف يمكن لثقافة ان تنهض وقد تحول عامل المطبعة الى رقيب يمكنه ان يوقف طبع اعظم الاعمال لاعتراضه على ما تتضمنه مما يعتقد هو انه خرق للعادات والتقاليد والأديان.

ان مصادرة ديوان محمد آدم في ظل هذه المناخات ليست غريبة على هذه الاجواء، فهي تركة تثاقلت على حامليها وهي قاب قوسين او ادنى من الانهيار، فلن يصلحها مفسدوها مهما تطاول الامل داخلنا في ذلك.

قص

غواية العطارين

إنصاف قلعجي*

■ هي ثرثرة لا أكثر ولا أقل داخل أبخرة ابليس، عرق، أعرق، أرشح عرقا، ضجيج يحيط بهذه الجريمة المعطّرة، تنساح نهرا من «دم الأخوَيْن»، أول جريمة في تاريخ البشرية، قابيل وهابيل، فما الذي جاء بهما الى دكان العطّارين لتلطم عينيّ عبارة على أحد الدروج «دم الأخوَيْن»، أفتح الدرج بحذر، يهب فراغ، انسفح دمهما على اليابسة من المحيط للمحيط، معرض النزق البشري، أستل قلمي وقد أخذتني الحمية، أنتهز فرصة انشغال البائع مع الزبائن وغالبا من بنات حواء وأبدأ بالخربشة، تعليق بجانب كل اسم عطارة، حين فجأة يندلق كيس ابليس بكل أبخرته وتعويذاته، فأروح في غيبوبة ابليس وقد تغطت الغرفة بغيوم من الدخان والألوان والروائح، يلوح من بين الغبار الأزرق، البنفسجي، البرتقالي، غوايات ابليس، غوايات الألوان، وابليس يحمل منكاشه فوق كتفه ويبتسم من خلف رأسي بتشفّ، لا أدري ما الذي جعلني حين رأيت منكاشه أتذكر تلك الرسالة القصيرة التي وصلتني ذات يوم على الخلوي تقول: احباط محاولة أمريكية لخطف الفلاح منقاش لاستنساخه وهو الذي أسقط أول طائرة هليوكوبتر أمريكية في الجنوب مع بداية الحرب الظالمة على العراق، نعم يبتسم بتشفّ، ولا أرى قرونه، أين ذهبت قرونه، فهو يحب النساء وربما تنازل عن قرونه الذكورية رغم أنهم قالوا، هكذا سمعت، فالكلام كثير عنه، قالوا بأنه يحمل في جسده أعضاء الذكورة والأنوثة، معا، يا ساتر يا رب، أناديه بصوت خافت، هل ما يقال صحيح، الحقيقة أني خفت ولا أدري أي جانب يغلب عليه، ابتسم بخبث، فارتحت، قلت له أنقذني، «اختر لي برّ وأنا أرسي عليه»، فأنا مرة ع البركة، أحب أجواء الرعب والغموض والقصص البوليسية وروايات الفرسان وأرسين لوبين رفيق طفولتي رغم أن والدي رحمه الله، قاطعني: اقرئي الفاتحة عن روحه، وأقرأ وأمسح وجهي بكفي، أين كنا، قال والدك رحمه الله، اقرئي الفاتحة مرة أخرى، وبقيت أقرأ الفاتحة خمسين مرة حتى قال أكملي، قلت رغم أن والدي، ولم أقل يرحمه الله لئلا تذبحني مرارة ابليس، ونحن نقول في المثل الشعبي، حشيشة قلبو تاخة، أي أنه دون مرارة، أي أنه ذو بال طويل، كان أبي يمنعني وأخي من قراءة قصص أرسين لوبين خوفا من أن تفسد أخلاقنا، فكنا خلال طفولتنا نندس تحت اللحاف ونشعل اللوكس وننهمك في القراءة بأعصاب مشدودة خوفا أن يقتحم علينا الغرفة فجأة.

كنا نحب قراءة الكتب الممنوعة وهناك دائما من يزودنا بها مثل أبو الفهد وأبو الليل، سقى الله أيامهما، أين وصلنا، تريدين أن ترسي على برّ، قلت يا ريت، همس وهو يحرك منكاشه داخل شعري وأنا مرمية على الأرض تهب علي رائحة البابونج والمليسة واللافندر، اذهبي للبحر وارسي هناك فأنت تحبين الماء.

قلت: أخاف البحر وبرجي هوائي، غمز بعينه ولكنك مغمورة بالماء. لا بد أنه برج آخر قد تداخل مع برجك ذاك الذي برجه مائي، قلت ربما لكني أحب الغيم، غيمة واحدة تمطر لي وحدي تحضنني حين لا أجد حضنا، ما زلت رومانسية رغم ما يحيط بك من حروب وويلات، شجعتني ابتسامته لأستطرد في الكلام، دلني كيف أخرج من جلدي، أشرعتي يا سيدي منهكة وأنا لا أجيد السباحة وأبي كان متعصبا والبحر مخيف مليء بالسراب يغويني ويرحل، صرخ مالك مثل مزراب مدلوق، وأنا امرأة صحراوية غوايتي ساعة رملية بعد أن ضيّعني الزمان، أقلبها ليل نهار عسى أن تأتي السفينة عليها علم انفلونزا الحب والطيور بعيدا عن زمن معتم.

جلجلت ضحكته ولا أحد يسمعه سواي، قلت صوتك يؤذي أذنيّ، قال قومي أكملي خربشاتك، قلت لا تتركني، أخافني، أخاف وحشة تلتصق بجلدي فتكرمش روحي وتنغلق فضاءاتي وينسدّ باب صحرائي، ألمّ خوفي وأمسك قلمي من جديد وقد أصابته الرجفة والرعشة، أقرأ: جلد باستر أو مانستر، الكيلو بمئات الدنانير، فغرت فمي، بلهاء، خشيت أن أسأل البائع خوفا من أن يكون في جوابه ما يخدش الحياء، يحمرّ وجهي، أغمض عينيّ، والتفت اليه أسأله هل أنا يا سيدي بعض اشراقات جنونك تضعني من ثم نقطة في نهاية السطر وتحمل عصاك وترحل كأنك ذاك الذي قال «لا أتوانى عن ضرب المرأة كلما رأيت أن هذا ضروري.

هي بالذات سأضربها ضربا موجعا نعم سأضرب سلمى، لا عليكم»، انه وحش كاسر، كان مشغولا عني بملء الدروج، وأقرأ: قشر الرمان، كان لنا منزل فيه أب وأم وأخوة كثيرون وهم يلقون بجزورة:طاسة ترن طاسة بالبحر غطاسة جواتا لولو وبراتا نحاسة، ويصرخون الرمانة، ذاك زمان، الرمانة، التكور، وقد قالت الصغيرة حين كبرت وتكورت ولم تزل «بعيني طفلة لم تزد عن أمس الا اصبعا»، قالت العالم تكور، الأم ثدي، تكور، الثدي رحم تكور، الأم حنان والنون تكور، التفاف نون اليدين حول الحبيب، الحب باء لثدي، والحاء حليب، حنين، نون انحناءات، حب، تلاحم، وكلها تنتهي بالأرض، والأرض كرة، ثدي، الأم، الكون أم، نون أم، ونطي نطي يا طابة، أشعر بالاغماء، يسندني من خلفي، هو خلفي، ينكش شعري بمنكاشه، أقرأ: سدر ياسمين، قلت في نفسي ما زلنا في الصدر والتكور، نكشني في ظهري هذه المرة قال: ولك هي سدر بالسين هي شجرة السدر، ولم أكن أدري، وكيف أدري وأنا مرة ع البركة.

كان يحتسي شيئا في كوبه، قال انه شاي انكليزي ايرل غراي ولكنه يكره الانكليز، يكره توني بلير. وأخذ يردد شاي من عهد أولاد الحرام سايكس وبيكو يشربونه في الخامسة بعد الظهر مع البسكوت ونحن نشرب الشاي في كل الأوقات، مشروبنا الوطني، في كل الأوقات، لا أزمنة لدينا، والخبز هو بسكوتنا وليس مثل بنت الكلبة التي قالت فليأكلوا بسكوتا اذا لم يوجد الخبز، ما اسمها، قلت لا أدري ربما ماري أنطوانيت، يمكن أن تكون زوجة لويس الرابع عشر، فقع من الضحك، لويس الرابع عشر، وأنا أردد كالببغاء يا للويس الرابع عشر، وكأن الجو قد أخذنا وقد أخذت عيوننا تنوس تتخدر، ثم انتفض فجأة لئلا تذهب هيبته، سألني هل تشربين، قلت لم أذق المشروب سم الهاري في حياتي لكن أمي سامحها الله كانت تردد دائما الله يمحي كاساتكم، ولك أنا أسألك هل تشربين الشاي، رشفة واحدة فأنا أحبه مع شطيرة الفلافل، غرق في الضحك ولا أدري لهذه الساعة ما الذي يجعله في ضحك دائم.

وجهك فقراوي، أكملي خربشاتك، طيّب أدر وجهك عني « صبّ لنا وطنا في الكؤوس يدير الرؤوس»، لعله لم يسمعني، وجهك يخيفني، قال ألم تكتبيني في كثير من قصصك وأنا كما تعرفين «أحبك بجنون»، هكذا قال، وأنا أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وتذكرت أغنية تقول وقد خفت أن يقرأ أفكاري «أنا حتى بالمنام طيفك رح يبعد عني يمكن بكرة الأيام من دونك بتصالحني».

وأخذني الحال، على وشك الاغماء، كان مشغولا عني بشيء لا أدريه فهو مدير ظهره لي، أتنفس كثيف وهي معادل الفياغرا، عشبة شعبية والفياغرا للأغنياء، لم أعلّق، أغمض عينيّ وقد شعرت بحاجتي للاغماء ثانية حين سندني بشوكته أو منكاشه لم أعد أدري، كأني غبت لوهلة... تقتحم غرفتي تقتحمني تفتح الستائر المعتمة تنشر الضوء بدفئك بكلماتك فلا أدري هل هي الكلمات أم الدفء الذي يرشح من حيطان غرفتي فأعرق وتعرق الغرفة بغزارة تنشرني في الشمس فقد تعفنت، عين جان، تفاح العفريت، ظفر الجان، لا اله الا الله، والجان العفريت يرقبني، زيتونة اسرائيل، يا لطيف قال البائع لتفتيت الحصا وأنا

الصعداء، «اخنقيني بيديك الرائعتين لأتنفس الصعداء»، ارحل أيها البحر الذي يلطمني فقد شبعت حبا وارتويت، حب، حاء الحياة، غواية الهمس داخل الحبال الصوتية، حاء حنين، غواية الياء تتمدد وتغفو داخل الحاء، خلطة لقمان الحكيم شدّتني قلت ها قد جئنا لقسم الفلاسفة، سألت البائع عنها وكان الدرج فارغا، قال عشبة عليها اقبال قلبي مليء بالحصا، جماجم تمر حنا، الله أكبر جماجم في كل الأزمنة، جماجم يلهو بها الأطفال، هي كرة قدم بعد أن فقدت ألعاب الأطفال، وجع، مطر من الوجع، بخور كنائس، «أبانا الذي في السموات لتكن مشيئتك»، حين كنت أجرجر قدميّ الصغيرتين داخل الكنيسة وقد خلت من زوارها أجلس على ركبتيّ أمام هيكل السيدة أبكي وحشة وأشم رائحة البخور، هزّي اليك بجذع نخلة من العراق لألد العراق، فتمد العذراء يدها وتمسح رأسي الصغير وأغفو في حضنها بجانب الصغير أتكور والتكور في النهاية أمّ، أقرأ بخور الصالحين وأكتب للفاسدين الحشاشين السكرانين المخبولين، وأقرأ عشبة نخوة تعيد النخوة، نكشني هذه للرجال دون استثناء، قرص القمر، هل رأيت وجهك يوما على قرص القمر، حبة الملوك، محظور، لسان البحر قطعوا لسان البحر لأنه ثرثار وثدي البحر الذي فاض حنانا وحليبا، نكشني قال يكفيك اليوم وراءك مهمات كثيرة، خرجت من الدوامات معفرة بابليس والرمل والبحر وتمر حنا وابن لقمان وأفتش عن سجائري ورغم انني أكره جورج دبليو بوش وأنا مع كل أنواع المقاطعة، الا أن المارلبورو تغريني بلونها الأحمر كثور مصارعة الثيران رغم أنه مصاب بعمى الألوان، وكانت تجلس أمام الدكان تبيع العلكة والشكالات والدبابيس والابر ومفاتيح وجزادين ومناديل، والثانية تبيع الخبيزة، اقتربت من الأولى التي تجلس على الأرض أمام معروضاتها أريد من السجائر المهربة، قالت الأخرى خبيزة قلت لا أحبها ولم أذقها في حياتي ولكن من أجلك أجربها، حين فتحت محفظتي شاهدتا صورته داخل المحفظة، أجهشت الأولى بالبكاء والثانية رفعت يديها للسماء وقالت لا أخاف الا من رب العباد، الله ينصره ويفك أسره، مشيت، تسبقني خطواتي المعثرة أصلا.

---

* قاصة من الأردن